

يومين وبنرجع

يومان وسنعود.. هذا ما قلته تماما لعائلتي عند خروجي من المنزل نازحا الى منطقة دير البلح وسط غزة يوم الجمعة 2023/10/15 وتلك الجملة تحديدا ما قالها جدي الحج فارس لأبنائه ولوالدي عندما هاجروا من بلدتنا الاصلية في دمره سنة ١٩٤٨. ظل والدي ووالدتي يرددان تلك الجملة اكثر من ستين عاما حتى وافتهم المنية..

يومين وبنرجع.. ظل والدي يخبرني عن شجرة الجميز المزروعة في حوش منزلهم في دمره وكم كان طعمها لذيذ، لا يوجد بحلاوته. وثمارها لا تنقطع طوال العام، تحمل سبع بطون، لا تذوق الذ منها طوال حياتك. يظل يستذكرها ويتعهد، هل لازالت مزروعة ام اقتلعها الاحتلال كما اقتلع ارواحنا عند مغادرتنا البلدة؟ ظلت والدي تستذكر البلدة كل ركن وشارع وبيت وعائلة. وكيف خبأت الاطباق الثمينة تحت الجميزة حتى تسترجعها يوم العودة.

وفي احد الايام بعد النكبة بثلاثين عام، عاد قريب لي من السعودية بعد غياب سنين، وبعد وصوله بأيام طلب ان يزور دمره ما تسمى (إبرز) حاليا. ذهبت معه الى دمره وأخذت معي ابي وامي. وعند وصولنا الى هناك لم نري شيئا سوى ارض فارغة تقريبا. اطلال قرية على طول وعرض البلدة. اخذوا جميعا يدورون حول انفسهم محاولين ان يتذكروا او يعيدوا تفاصيل المكان من بقايا الاحجار المتراكمة، وما تبقى من بيوت الطين، وبعض الاشجار التي لم تكن جميزة والدي من ضمنها. وبدأوا جميعا يعيدون رسم خارطة القرية: هنا كان بئر البلد، وهناك كانت الجميزة، وشجرة الكينيا هذه كانت امام منزلنا. اذا هنا كان بيتنا. ذهبت امي تركض بذهول والدموع تملأ عيونها نحو مكان شجرة الجميز، تحفر الارض بيديها باحثة عن اطباقها التي دفنتها وقت النكبة قبل مغادرتها المنزل. ظلت تنبش بذلك المكان وتغير مكان النبش في محيط الشجرة حتى صنعت عدة حفر دون جدوى. كان الذهول والدموع والحسرة والالم والصمت، ما يحيط بالمكان. كنت واقفا انظر اليهم، لا ادرك حجم النكبة التي تعرضوا لها، فقط كنت حزين جدا لان والدي لم يجد الجميزة والدي لم تجد الاطباق. صعدا بالحافلة وعدنا ادرانا الى المنزل وظل والدي يحدثنا عن الجميزة والدي تحدثنا عن الاطباق.

الان سيصبح لنا ١٠٩ ايام نازحين في منطقة دير البلح. اول ايام النزوح كان همنا الأول، النجاة بأنفسنا من ويلات الحرب محاولين جاهدين ان نبتعد عن اماكن المعارك والاشتباكات. بعد شهور بتنا نحلم بالعودة ونستذكر كل تفاصيل المنزل شبر، شبر، وقطعة، قطعة. نعود للصور الموجودة على الجوال لمنزلنا نقرب الصور حتى نشاهد التفاصيل الدقيقة للمطبخ وللقطة عفوية، لغرفة النوم وسريرنا الذي كنا ننام عليه، ادركنا معنى ان الانسان لا يستريح الا على وسادته وفرشه.. آخ، آخ لم نأخذ صورة للحمام الذي بتنا الان في مكان استضافتنا عند احد الاصدقاء والذي يستضيف في منزله الكبير ما يقارب من ١٣٠ شخص نقف طابور حتى نتمكن من الدخول وبيدنا سطل ماء لصعوبة توفر المياه وتشغيل السيفون والشطافة. عدنا الى البدايات الاولى لدخول الحمام، والبانوي الذي بات احد احلامنا منذ بداية الحرب حتى الان ان نعود لنستلقي به. لا اعتقد ان شخصا من النازحين استحم كما يجب.. ولكن جميعنا نحمل سطلا من الماء نسكبه على اجسادنا مع قليل من الشامبو ان وجد ونغادر الحمام.

يومين وبنرجع.. لقد طالت ايام الحرب وبتنا فقط نحلم بالعودة للمنزل ونتابع اخبار الهدنة بتفاصيلها كل يوم وبفشلها الذي لا ينتهي. الهدنة بالنسبة للنازحين هي العودة لمنزلهم، حتى لو متنا هناك سوف نموت سعداء.

لقد طالّت المدة وصار الوقت بطيء والنهار طويل والليل اطول. طوال الوقت ندور حول انفسنا حول شيئين لا ثالث لهما، توفير الطعام للأسرة وانتظار العودة لبيوتنا.

ما اشبه اليوم بالأمس.. يومين وبنرجع.. حينما كان والدي يخبرني بتلك الجملة كنت اسأل نفسي اكانوا مغفلين الى تلك الدرجة؟ الم يدركوا انه احتلال وانها حرب والعودة ستطول؟ هل نحن ايضا وقعنا بنفس الفخ؟ ام سنعود قريبا الى منازلنا. والسؤال الهام هل لازالت المنازل باقية والمدينة قائمة؟

احيانا اشعر بالخوف من اليوم الذي سوف اعود به الى غزة من شدة ما سمعت وشاهدت من دمار. انا احب غزة مدينتي الجميلة اشتاق لها، لكل شبر لكل الطرقات وازقة المخيم، مخيم الشاطئ الذي تربيت به، ميناء الصيادين وشاطئ البحر، والجندي المجهول، والساحة، وشارع عمر المختار، وشارع النصر، والثلاثيني، وسوق فراس، والشيخ رضوان، والشاطئ وسوق الجمعة. حتما سنعود يا غزة حتما سنعود يا ابي. يومين وبنرجع...

علي ابو ياسين
2024/1/31